الدَّارُ الآخِرَةُ

(٣)

ذِكْرُ الْمَوْتِ

للشيخ / ندا أبو أحمد

الدَّارُ الآخِرَة
ذِكْــرُ الْــمَــوْتِ

تمهيد

إن الحمد لله تعالى نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.....

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ } [سورة آل عمران: ١٠٢]

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}
[سورة النساء:١]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [سورة الأحزاب: ٧٠]

أما بعد....،

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي قصم بالموت رقاب الجبابرة، وكسر به ظهور الأكاسرة، وقصر به آمال القياصرة، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة، حتى إذا جاءهم الوعد الحق فأَرْدَاهم في الحافرة؛ فنقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود، ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مقاساة الديدان والهوام، ومن التَّنَعُّم بالطعام والشراب إلى التمرُّغ في التراب، ومن أُنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل، فانظر هل وجدوا من الموت حصناً وعزًّا، واتخذوا من دونه حجاباً وحرزاً، وانظر هل تُحسُّ منهم من أحدٍ أو تسمع له ركزاً؟!.

فسبحان مَن انفرد بالقهر والاستيلاء، واستأثر باستحقاق البقاء، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثم جعل الموت مخلصاً للأتقياء، وموعداً في حقهم للقاء، وجعل القبر سجناً للأشقياء، وحبساً ضيقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء، فله الإنعام بالنعم الظاهرة، وله الانتقام بالنقم القاهرة.

- فالموت هو الحقيقة التي تصبغ الحياة بصبغة الذل والعبودية لقهَّار السموات والأرض.

- إنها الحقيقة التي تسربل بها طوعاً أو كرهاً العصاة والطائعون، بل وشرب كأسها الأنبياء والمرسلون.

- إنها الحقيقة التي تعلنُ على مدى الزمان والمكان في أذن وعقل كل صغير وكبير أنه لا ألوهية إلا لله، ولا بقاء إلا للحي الذي لا يموت.

قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ{٢٦} وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: ٢٦-٢٧]

- إنها الحقيقة الضائعة التي نسيها كثير منا، بل عندما يتذكرها يدفع هذا الفكر ولا يريده، إنه الموت. وهو الحقيقة التي يجب أن تستقر في كل نفس؛ لأنه إذا تذكَّرها المسئول سيتقي الله في رعيته، وإذا تذكرها الأب اتقى الله في أولاده وزوجته، وإذا تذكرتها الزوجة اتَّقتْ الله في زوجها وأولادها.

والموت حق كما وصفه القرآن الكريم: {وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ{١٩} وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ{٢٠} وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ} [ق:١٩-٢١]

فالموت حق، وسيفُهُ مسلط على عنق كل إنسان، فلا يترك الموت نبياً ولا تقياً، فقد نزل بجميع الأنبياء والمرسلين، ولا يخاف قوياً؛ فقد قصم ظهور الجبابرة والملوك والسلاطين، ولا يتملق غنياً فقد انقضَّ على مَن ملكوا الدنيا فتركهم خامدين، وأنت... أنت أيها الأخ الكريم لابد أن تشرب كأس المَنِيَّة يوماً كما شربها مَن قبلك.

فجدير بمَن كان الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقرُّه، وبطن الأرض مُستقرهُ، والقيامة موعده، والجَنَّة والنار مورده، أن لا يكون له فكر إلا في ذلك ولا استعداد إلا له.

وهذا ما حثَّنا عليه النبي ﷺ

فقد أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال:

"اكثروا من ذكر هادم اللذات" يعني: الموت. (صحيح الجامع: ١٢١٠)

ومعنى الحديث: أي: نغِّصوا بذكر الموت لذات الدنيا؛ حتى ينقطع ركونكم إليها؛ فتنقلبوا إلى الله تعالى.

أو بمعنى آخر: حتى لا تأخذكم الدنيا في زينتها وزخارفها، فتخرجوا منها بغير زاد، وتقبلوا على الله بغير عذر.

وقال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك:٢]

قال أهل التفسير: يعني: أكثركم للموت ذكراً؛ لأنه مَن كان للموت ذاكراً، كان للموت مستعداً.

ومع وجود الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحض على كثرة ذكر الموت؛ إلا أن الناس انقسموا إلى ثلاثة أقسام بالنسبة لذكر الموت.

أحـــوال النـــاس عند ذكر المـــوت

انقسم الناس إلى ثلاثة أصناف عند ذكر الموت:-

الصنف الأول: صنف لا يحب ذكر الموت.

الصنف الثاني: صنف يحب ذكر الموت تارة؛ ويكرهه تارة أخرى.

الصنف الثالث: صنف يأنس ويحب ذكر الموت.

ولنا مع كل صنف وقفة:-

الصنف الأول: صنف لا يحب ذكر الموت:

وهو المنهمك في الدنيا، المُنْكَب على غرورها، والمحب لشهواتها، فهذا يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإذا ذُكِّر به كرهه ونفر منه، واشتغل بمذمته وتأسَّف على دنياه.

يقول الحافظ زكريا بن عدي ﷺ حين حضرته الوفاة: "اللهم إني إليك مشتاق"

قال بشر: "ليس أحد يحب الدنيا إلا لم يحب الموت، ومَن زهد فيها أحبَّ لقاء مولاه"

وحُكي أن سليمان بن عبد الملك لما دخل المدينة حاجاً قال:

"هل بها من رجلٍ أدرك عدة من الصحابة؟ قالوا: نعم. أبو حازم، فأرسلَ اليه، فلما أتاه قال: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ قال: لأنكم عمَّرتم الدنيا وخرَّبتم الآخرة، فتكرهون الخروج من العمران إلى الخراب، قال: صدقت، ثم قال: ليت شعري، ما لنا عند الله؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله، قال: فأين أجده؟ قال: في قوله تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{١٣} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}[الانفطار:١٣-١٤]، قال: فأين رحمة الله؟ قال: رحمة الله قريب من المحسنين، قال: يا ليت شعري؟ كيف العرض على الله – تعالى – غداً؟ قال: أما المحسن فكالغائب الذي يقدم على أهله، وأما المسيء فكالأبق يقدم على مولاه؛ فبكى سليمان حتى علا صوته واشتد بكاؤه، ثم قال: أوصني، قال: إياك أن يراك الله تعالى حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك".

ونقول لهذا الصنف الذي يكره الموت ويحب الدنيا ويركن إليها: هل أنت مخلد؟

الجواب: لا. فلو كان الخلد كتب لأحد قبلك؛ لكان لسيدنا محمد ﷺ، فهو خير الخلق وحبيب الحق، **ومع ذلك قال الله تعالى له:** {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ} [الزمر: ٣٠]

وهذه حقيقة قرَّرها رب العالمين في كتابه الكريم؛ **فقال تعالى:** {كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمران: ١٨٥]

فاعلم أخي الحبيب... أن الدنيا مهما طالت فهي قصيرة، ومهما عظمت فهي حقيرة، وأن الليل مهما طال لابد من طلوع الفجر، وأن العمر مهما طال لابد من دخول القبر.

وقد جاء في "صحيح البخاري" من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"أُرسل ملكُ الموت إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صكَّه، فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه فقل له: يضع يده على متن ثور، فله بما غطَّى يدُهُ بكل شعرة سنة، قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن، قال: فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر".

– ***وفي رواية:*** "أرسلتني إلى عبدٍ لا يريد الموت وقد فقأ عيني، فردَّ الله عليه عينه، فقل له: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك..." الحديث

فها هو موسى عليه السلام لما علم أنه سيعيش هذه السنين العديدة والأزمنة المديدة والنهاية هي الموت، فقال: فالآن.

يا من لا تحب الموت... **قل لي أين ستهرب منه؟! وقد قال رب العالمين في كتابه الكريم:** {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجمعة:٨]

فالموت حق على الإنس والجن، فالكلُّ سيموت إلا ذو العزة والجبروت

ففي "صحيح البخاري" عن ابن عباس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقول:

"أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت، والإنس والجن يموتون"

وأخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أنس ﷺ قال:

"لما قالت فاطمة ذلك، يعني لما وجد رسول الله ﷺ من كرب الموت ما وجد، قالت فاطمة: واكرباه: قال رسول الله ﷺ يا بُنَيَّة، إنه قد حضر بأبيك ما ليس الله بتارك منه أحداً لموفاة يوم القيامة" (السلسلة الصحيحة: ١٧٣٨)

فالموت طالب لا يعجزه مقيم، ولا ينفلت منه هارب، فهو قضاء نافذ، وحكم شامل، وأمر حاتم لازم، لا مهرب منه ولا مفر.

وفي الحديث الذي أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" والحاكم في "المستدرك" عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : **"أتاني جبريل، فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبِبْ مَن شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه الليل، وعزه استغناؤه عن الناس"** (صحيح الجامع: ٧٣)

بل اعلم أخي الحبيب...يا من لا تحب ذكر الموت، أن الله ﷻ كتب عليك الفناء قبل أن تولد

فقد أخرج "البخاري ومسلم" من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال:

"إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد..." الحديث

فالأجل كُتِب على الإنسان قبل أن يولد؛ فإذا جاء وقته وحان حينه لا يؤخَّر

كما قال تعالى: {فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ } [الأعراف: ٣٤]

ويؤكد النبي ﷺ على هذه الحقيقة

ففي الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم عن أم حبيبة ﷺ قالت:

"اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية" قال: فقال النبي ﷺ: "لقد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة. لن يعجل شيء قبل حِلِّه، أو يؤخر شيئاً عن أجله، ولو كنتِ سألتِ الله أن يعيذك من عذاب النار، أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل"

وجاء في كتاب "الزهد والرقائق" لابن المبارك (ص ٨٨) عن أبي الدرداء أو أبي ذر ﷺ قال: **"تُولدون للموت، وتعمرون للخراب، وتحرصون على ما يفنى، وتذرون ما يبقى"**

كلمة لمَن لا يحب ذكر الموت ويغفل عنه

أيها الغافل عن ذكر الموت... اعلم أن الموت مصيبة عظيمة، والمصيبة الأعظم منه هي الغفلة عنه

قال تعالى: {فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ} [المائدة:١٠٦]

قال القرطبي في "تفسيره" (٤/٢٣٤٩): "سمَّى الله تعالى الموت في هذه الآية: **{مُّصِيبَةُ}**،

قال علماؤنا: والموت وإن كان مصيبة عظمى، ورزية كبرى، فأعظم منه الغفلة عنه، والإعراض عن ذكره، وترك التفكر فيه، وترك العمل له، وإن فيه وحده لعبرة لمن اعتبر، وفكرة لمَن تفكَّر". اهـ

يقول الحسن البصري ﷺ:

"ما رأيت يقيناً لا شك فيه أصبح شكاً لا يقين فيه، من يقيننا بالموت وعملنا لغيره".

وهذا الصنف الذي يكره ذكر الموت هو الذي أخبر عنه الحبيب النبي ﷺ

فقد أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:

"قلب الشيخِ شابٌّ على حب اثنتين: حب العيش، والمال"

وعند أحمد والترمذي بلفظ: **"قلب الشيخ شابٌّ على حب اثنتين: طول الحياة، وكثرة المال"**

(الصحيحة: ١٩٠٦)، (صحيح الجامع: ٤٤٠٨)

وعند مسلم من حديث أنس ﷺ بلفظ:

"يهرم ابن آدم ويشبُّ فيه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر"

أيها الغافل عن ذكر الموت... اعلم أن فيك نقص كبير

فقد روى الطبراني بإسناد حسن من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال:

"مات رجل من أصحاب النبي ﷺ، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يثنون عليه، ويذكرون من عبادته، ورسول الله ﷺ ساكت فلما سكتوا، قال رسول الله ﷺ: هل كان يكثر ذكر الموت؟ قالوا: لا. قال: فهل كان يدع كثيراً ممَّا يشتهي؟ قالوا: لا. قال: ما بلغ صاحبكم كثيراً ممَّا تذهبون إليه".

جاء في كتاب "الزهد الكبير" للبيهقي (ص ٢٢٩) عن خيثمة:

"أنه لقي محارباً، فقال له: كيف حبك للموت؟ قال: ما أحبه، قال: إن ذلك بك لنقص كبير"

كلنا في غفلة ... والموت يغدو ويروح

نُحْ على نفسك ... يا مسكين إن كنت تنوح

أيها الغافل... تنبَّه قبل فوات الأوان، وتيقَّظ قبل أن يقال: "**مات فلان**"

أيها الغافل... يا مشغولاً بما لديه عمَّا بين يديه، يا غافلاً عن الموت وقد دنا إليه، يا ساعياً إلى ما يضره بقدميه، يا مختار المؤذي له من حالتيه، يأمن الدهر وقد رأى صَرْفَيْه، كم عَاين ميتاً لو اعتبر بعينيه، إنما أغار على شبابه هاجمٌ على فَوْديه، أينفعه يوم الرحيل دمع يَملأ خديه؟ يا مَن يصير عن قليل إلى حُفْرة، تنبَّه لنفسك من هذه السكرة، لو أنك تذكَّرت لحدك.

قل للمفرط يستعد ... ما من ورود الموت بدُّ
قد أخلق الدهر الشباب ... وما مضى لا يستردُّ
فإلي متى يشتغل الفتى ... في لهوه والأمر جدُّ
والعمر يقصر كل يوم ... بي وآمالي تمدُّ

(المدهش: ص ٣٧١)

أيها الغافل:

تفكَّر قبل أن تندم ... فإنك ميت فاعلمْ
ولا تغتر بالدنيا ... فإن صحيحها يسقمْ
وإن جديدها يبلى ... وإن شبابها يهرَمْ

بل وصلُ الموت إلى الشباب؛ فلا يُفرِّق بين كبير وصغير، أو صحيح وسقيم

قال ميمون بن مهران لجلسائه:

"يا معشر الشيوخ، ما ينتظر بالزرع إذا أبيض؟! قالوا: الحصاد، فنظر إلى الشباب، فقال: يا معشر الشباب، إن الزرع قد تدركه الآفة قبل أن يستحصد

أيا ابن آدم لا تغررك عافية ... عليك ضافية فالعمر معدود
ما أنت إلا كزرع عند خُضرته ... بكل شيء من الآفات مقصود
فإن سلمت من الآفات أجمعها ... فأنت عند كمال الأمر محصود

أيها الغافل عن ذكر الموت... اعلم أن الموت حتم لازم

لا تمنع منه حصانة القلاع، ولا يحول دونه الحجاب، ولا ترده الأبواب.

قال تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [النساء: ٧٨] ، **وقال تعالى:**

{قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }[الجمعة:٨]

يا مقيماً قد حان منه رحيل ... بعد ذاك الرحيل يوم عصيب
إن للموت سكرة فارتقبها ... لا يدويك إن أتتك طبيب
كم توانى حتى تصير رهيناً ... ثم تأتيك دعوة فتجيب
وتذكر يوماً تحاسب فيه ... إن من يذكر الممات ينيب
ليس من ساعة من الدهر ... إلا للمنايا عليك رقيب
كل يوم ترميك بسهم ... إن تخطىء يوماً فسوف تصيب

وقال آخر:

نُراعُ لذِكْرِ الموتِ ساعةَ ذِكْرِه ... وتعترِضُ الدنيا فنلهو ونلعبُ
يشقى الفتى وخُيُولُ الموتِ تطلبه ... وإن نوى وَقْفَة فالموتُ ما يقفُ
نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعافُ ما لابد مِن شُرْبه

وعن ميمون بن مهران أنه قال: "دخلتُ على عمر بن عبد العزيز يوماً وعنده سابق البربري الشاعر، وهو ينشد شعراً؛ ***فانتهى بشعره إلى هذه الأبيات.***

وكم من صحيحٍ بات للموتِ آمناً ... أتته المنايا بغتةً بعدما هَجَعْ
ولم يستطع إذ جاءه الموت بغتةً ... فراراً ولا منه بقوَّته امتَنَعْ
فأصبح تبكيه النساء مقنَّعاً ... ولا يسمعُ الداعي وإن صوتَهَ رَفَعْ
وقُرِّب من لحدٍ صار مقيلَهُ ... وفارق ما قد كان بالأمس قد جَمَعْ
ولا يترك الموت الغنيَّ لماله ... ولا معدماً في الحال ذا حاجة يَدَعْ

قال: فلم يزل عمي ﷺ يبكي ويضطرب حتى غُشي عليه" (الزهد الكبير للبيهقي: ص ٢٦٣)

أيها الغافل:

ضربت عن ادِّكار الموت صفحاً ... كأنك لا تراه عليك حتماً

قال الربيع بن برة- الربيع بن عبد الرحمن -:

"عجبتُ للخلائق كيف ذهلوا عن أمر حقٍّ تراه عيونهم، وتشهدُ عليه معاقدُ قلوبهم، إيماناً وتصديقاً بما جاء به المرسلون، ثم ها هم في غفلة عنه، سكارى يلعبون!" (حلية الأولياء:٦-٢٩٧)، (صفة الصفوة:٣-٣٥٣)

وكان الحسن البصري ﷺ يتعجَّب من هذا الصنف فيقول:

عجباً للناس! أُمروا بالزاد، ونودي فيهم بالرحيل، وحُبس أولهم عن أخرهم وهم قُعودٌ يلعبون.

أيها الغافل:

يا مُعرضاً عمَّا يُراد به وقدْ جدّ المسيرُ فمُنتهاهُ دان
يختالُ في حُلل المسدّة ناسياً ما بعدها من حلة الاكفان

أيها الغافل:

"أما تعلم أن الموت يسعى في تبديد شملك؟ أما تخاف أن تؤخذ على قبيح فعلك؟ واعجباً لك من راحل تركت الزاد في غير رَحْلك؟ يا مغرور بطول الأمل، يا مسرور بسوء العمل، كن من الموت على وجل (خوف) فما تدري متى يهجم الأجل.

كل امرئ مصبح في اهله والموت أدنى من شراك نعله
أؤمل أن أُخلَّد والمنايا تدور عليَّ من كل النواحي
وما أدري وإن أمسيتُ يوماً لعلي لا أعيش إلى الصباح

أيها الغافل:

"ليخرسن الموت بسطوته فاك، إذا وافاك، إنما اليوم لهذا وغداً لذاك"

يا ليت شعرى ما ادخرت ليوم بؤسك وافتقارك
فلتنزلن بمنزل تحتاج فيه إلى ادخارك
أفنيت عمرك باغترارك ومناك فيه بانتظارك
ونسيت ما لابد منه وكان أولى بادكارك
ولو اعتبرت بمَن مضى لكفاك علما باعتبارك
لك ساعة تأتيك من ساعات ليلك او نهارك
فتصير محتضراً بها فتهمى من قبل احتقارك
من قبل أن تقلى وتقـ صى ثم تخرج من ديارك
من قبل أن تتشاغل الزوار عنك وعن مزارك

وقال آخر:

اذْكُر الموتَ غُدْوةً وعشِيَّة وارعَ ساعاتك القصار الوَحِيَّة[1]
هَبْك قد نِلْتَ كل ما تحملُ الأرض فهل بعد ذاك إلا المَنِيَّة

(1) الوَحِيَّة: المُسرعة.

أيها اللاهي في سكرته:

أنسيتَ يا مغرورٌ أنك ميتُ ... أيْقِنْ بأنك في المقابر نازلُ
تفْنى وتَبْلى والخلائقُ للبَلى ... أبمِثْل هذا العيش يفْرح عاقلُ

أيها الغافل:

تنام ولم تنم عنك المنـايا ... تنـبَّه للمـنيَّة يـا نَـؤُومُ
تموت غداً وأنت قريرُ عينٍ ... من الغفلات في لُجَجٍ تعومُ
لهوتَ عن الفناء وأنت تفنى ... وما حيّ على الدنيا يدومُ

وقال أبو بكر بن علـيّ:

قل للمؤمِّل إن الموتَ في أَثرِك ... وليس يخفى عليك الأمر من نَظَرِكْ
فيمن مضى لك إن فكَّرت مفتكرْ ... ومَن يمت كلَّ يومٍ فهو من نذركْ
دارٌ تسـافر فيهـا من غد سفراً ... فـلا تـؤوب إذا سافرت من سفركْ
تضحى غداً سمراً للذاكرين كما ... صار الذين مضوا بالأمس من سمركْ

(قصر الأمل: ص٥٣)

وقال أيضاً أبو بكر بن علـي ﷺ:

نُودي بصوتٍ أيَّما صوتٍ ... ما أقربَ الحيّ من الموت
كأن أهل الغيّ في غيِّهم ... قد أخذوا أمناً من المـوتِ
كم مصبحٍ يَعْمُر بيتاً له ... لم يُمْسِ إلا خـارب البيت
هذا وكـم حيٍّ بكى مَيْتاً ... فأصبح الحيُّ مع الميت

(قصر الأمل: ص٥٣)

فأين مَن لَعِبَ ولهى؟ أين من غفل وسها؟ دهاه أفظع ما دهى، وحُطَّ ركنه فوهى، ذهبت لذةُ ذنوبِه وحبس بها، نظر في عاجله ونسي المنتهى.

الصنف الثاني: يذكر الموت تارة ويكرهه تارة:

وهو التائب؛ فإنه يكثر من ذكر الموت؛ لينبعث من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة، ويكرهه تارة أخرى خيفة أن يتخطفه الموت قبل تمام التوبة، وقبل إصلاح الزاد؛ وهو معذور في كرهه الموت، فهو كالذي يحب تأخر لقاء الحبيب حتى يستعد للقائه، وعلامة هذا التائب ان يكون دائم الاستعداد للقاء

قال أبو سليمان الداراني: ***قلت لأم هارون العابدة:*** أتحبين أن تموتي؟ قالت: لا. قلت: ولِمَ؟ قالت: والله لو عصيت مخلوقاً لكرهت لقاءه، فكيف بالخالق جل جلاله؟

(العاقبة في ذكر الموت والآخرة ص ٣٠ لعبد الحق الإشبيلي).

الصنف الثالث: وهو الذي يذكر الموت دائماً ويأنس بذكره:

كان السلف الصالح يُحبُّون ذكر الموت ولا يغفلون عنه، ***ويدلك على هذا قول معاذ بن جبل ﷺ لما حضره الموت قال:*** "حبيب جاء على فاقة" ، وهذا الصنف في الغالب يستبطيء مجيء الموت، ويحب مجيئه ليتخلَّص من دار العاصين، وينتقل إلى جوار رب العالمين، **فهم يحبون الموت لأمور منها:-**

١- الموت السبيل الموصل للقاء اللّه تعالى:

- ***قال حذيفة لما حضرته الوفاة:*** "حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحبَّ إليَّ من الغنى، والسقم أحبَّ إليَّ من الصحة، والموت أحب إليَّ من العيش فسهِّل عليَّ الموت حتى ألقاك". **(الثبات عند الممات لابن الجوزي: ص ١٢٢)**

- ***وفي "حلية الأولياء" (٩/١٠) عن حبان بن الأسود قال:***

"الموت خير يُوصل الحبيب إلى الحبيب".

- ***ولما احتضر زكريا بن عدي ﷺ قال:***

"اللهم إني إليك مشتاق، ***قال بشر:*** ليس أحد يحب الدنيا إلا لم يحب الموت، ومَن زهد فيها أحب لقاء مولاه".

- ***قال أبو الدرداء:*** "أُحبُّ الفقر تواضعاً لربي، وأحب الموت اشتياقاً لربي، وأحب المرض تكفيراً لخطيئتي".

(شرح الصدور: ص ١٥).

٢- الموت سبيل لدخول الجَنَّة، والفوز بالنعيم المقيم:

- ففي الحديث الذي أخرجه النسائي عن أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال:

"من قرأ آية الكرسي عقيب كل صلاة، لم يمنعه من دخول الجَنَّة إلا أن يموت".

(صحيح الجامع: ٦٤٦٤)

فالمؤمن التقي النقي يحب ويكثر من ذكر الموت؛ لأنه يُتوَصَّل به إلى الجَنَّة، ولو لم يكن موت لم تكن الجَنَّة.

- وقال ابن عبد ربه لمكحول:

"أتحبُّ الجَنَّة؟ قال: ومَن لا يحب الجَنَّة؟ قال: فأحب الموت، فإنك لن ترى الجَنَّة حتى تموت"

(حلية الأولياء:٥/١٧٧)

- وقال مالك بن مغول:

"بلغني أن أول سرور يدخل على المؤمن الموت، لما يرى من كرامة الله وثوابه".

ولذلك منَّ الله تعالى بالموت على الإنسان (التقي)، **فقال تعالى:**

{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك:٢]

فقدَّم الموت على الحياة تنبيهاً على أنه يُتوَصَّل به إلى الحياة الحقيقة، وعدَّه علينا في نعمه ﷻ

فقال ﷻ: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ{٢٦} وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ {٢٧} فَبِأَيِّ آَلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}

[الرحمن:٢٦- ٢٨]

وقال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } [البقرة: ٢٨].

فجعل الموت إنعاماً كما جعل الحياة إنعاماً، لأنه لما كانت الحياة الأخروية نعمة لا وصول إليها إلا بالموت، فالموت نعمة؛ لأن السبب الذي يُتوَصَّل به إلى النعمة نعمة.

ولكون الموت ذريعة إلى السعادة الكبرى لم يكن الأنبياء والحكماء يخافونه، ***حتى قال أحدهم:***

"والله ما أبالي أقع على الموت أو يقع الموت عليَّ"، وكانوا يتوقعونه ويرون أنهم في حبس، فينتظرون المبشر بإطلاقهم، **قال تعالى: {وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ }** [آل عمران:١٥٨]

تنبيهاً على أن الموت سبيل الحياة المستفادة عند الله تعالى.

٣- الموت خير للمؤمن من الفتنة:

أخرج الإمام أحمد والبغوي في "شرح السُّنَّة" عن محمود بن لبيد ﷺ أن النبي ﷺ قال:

"يكره ابن آدم الموت، والموت خير له من الفتنة" (السلسلة الصحيحة:٨١٣)

– ***وفي رواية:*** **"اثنتان يكرهما ابن آدم: الموت، وقلة المال؛ والموت خير للمؤمن من الفتنة، وقلة المال أقل للحساب"**

وكان أبو الفضل يسأل الله تعالى الموت

فقد جاء في كتاب "رياض النفوس" (٢-٢٣٦) عن يونس أنه قال:

"ما رأيت أحداً سُرَّ بالموت من أبي الفضل يوسف بن مسرور مولى نجم الصيرفي، كان يقول: والله لو أعلم أن أحداً تجاب دعوته؛ لسألته أن يسأل الله تعالى لي الموت، فقلت له: أصلحك الله أوتحب أن تموت؟ فقال: وكيف لا أحب الخروج من دار الفتن وإبليس وكذا... وكذا؛ إلى دار أرجو فيها الاجتماع مع محمد ﷺ".

وتحدث أبو علي الحسن بن فتحون فقال: "كنت جالساً يوماً عند أبي محمد البرقي؛ حتى دخل عليه أبو الفضل، فقال له: إن شئت تدعو ونؤمن، أو ندعو وتؤمن، فقال أبو الفضل: أيّ ذلك شئت. وأخذ أبو الفضل في الدعاء، وأخذ الآخر يؤمِّن على دعائه، يسألان الله تعالى الموت، فما أتى بعد ذلك شهر حتى مات أبو الفضل، ثم شهر آخر بعده حتى مات محمد البرقي – رحمهما الله تعالى –.

٤- المـــوت راحـــة للمؤمن:

– ***فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي قتادة ﷺ قال:***

"إن رسول الله ﷺ مُرَّ عليه بجنازة، فقال: "مستريح أو مستراح منه، قالوا: يا رسول الله، ما المستريح وما المستراح منه؟ قال: العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب"

– ***وعن سفيان قال:*** "كان يقال: الموت راحة العابدين" (بشرى الكئيب بلقاء الحبيب: ص٣٢).

– ***عن عبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:***

"ما على الأرض نفس تموت، ولها عند الله خير، تحب أن ترجع إليكم، ولها نعيم الدنيا وما فيها، إلا القتيل يحب أن يرجع فيقتل مرة أخرى" (النسائي وأحمد بسند صحيح).

- ***وعن ابن مسعود*** ﷺ ***قال:*** **"ليس للمؤمن راحة دون لقاء الله"** (أبو نعيم في الحلية:١/٣١)

- ***وعن ابن مسعود*** ﷺ ***قال:*** **"ما من نفسٍ برَّة ولا فاجرة، إلا والموت خير لها من الحياة، إن كان براً"، فقد قال تعالى: {وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ} [آل عمران: ١٩٨]، وإن كان فاجراً ، فقد قال الله تعالى: {وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}**

[آل عمران: ١٧٨]"

(أخرجه أحمد في الزهد – وابن المبارك في الزهد، وإسناده إلى عبد الله بن مسعود موقوفاً صحيح)

فلهذا ولغيره كان السلف يُحبُّون ذكر الموت ويأنسون به، ويحق لهم هذا.

وهم الذين سمعوا النبي ﷺ **"تحفة المؤمن الموت"**

(أخرجه ابن المبارك في الزهد، والحاكم، والطبراني في الكبير عن عبد الله بن عمرو، والحديث ضعفه الألباني).

- ***وصحَّ عن الربيع بن خُثَيم أنه قال:*** "ما من غائب ينتظره المؤمن خير له من الموت"

(حلية الأولياء:٢/١١٤) و(الزهد لابن المبارك رقم: ٢٧١٧)

- ***وقيل لعبد الأعلى التيمي:*** "ما تشتهي لنفسك ولمَن تحب من أهلك؟ قال: الموت".

(بشرى الكئيب بلقاء الحبيب للسيوطي: ص ٣١)

فلهذا ولغيره كان السلف الصالح أشد الناس ذكراً للموت

- ***قال عمر بن عبد العزيز*** رحمه الله: "لقد نغَّص هذا الموتُ على أهل الدنيا ما هم فيه من غضارة الدنيا[١] وزينتها، فبينما هم فيها كذلك وعلى ذلك؛ أتاهم حياضُ الموت[٢] فاخترمهم[٣] ، فالويلُ والحسرة هنالك لمَن لم يحذر الموت ويكره في الرخاء، فيقدم لنفسه خيراً يجده بعدما فارق الدنيا وأهلها، قال: ثم غلبه البكاء فقام" **(حلية الأولياء: ٥/٦٢٤)**

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله ***يقول لجلسائه:***

"أشترطُ عليكم شروطاً ثلاثة لمَن أراد أن يجلس في مجلسي، **أولها**: لا تتكلموا في الدنيا، **ثانيها**: لا تغتابوا أحداً في مجلسي، **وثالثها**: لا تمزحوا عندي أبداً، فكانوا يتذاكرون الموت وسكرته، والقبر وظلماته، حتى إذا انفضُّوا كانوا كمَن قام عن جنازة".

(١) أي: نعيم الدنيا.

(٢) حياض الموت: دائرته، جمع: حوض. يقال: "حوض حوله" إذا دار.

(٣) أي: أخذهم.

- ***وجاء في "حلية الأولياء" (٦/٢٩٧) و"صفة الصفوة" (٣/٣٠٣٩) عن الربيع بن برة قال:*** "عجبتُ للخلائق، كيف ذُهلوا عن أمرٍ حقٍّ تراه عيونهم، وتشهد عليه معاقد قلوبهم؛ إيماناً وتصديقاً بما جاء به المرسلون، ثم هاهم في غفلة عنه، سكارى يلعبون.

- ***ولما حضرت بلال الوفاةُ:*** قالت زوجته واحزاناه، فقال لها: لا. بل قولي: وافرحتاه، فغداً ألقى الأحبة،محمداً وحزبه.

- ***قال حاتم:*** ما من صباح إلا والشيطان يقول لي: ما تأكل وما تلبس، وأين تسكن؟ فأقول: آكل الموت، وألبس الكفن، وأسكن القبر، ***وقال*** ﷺ: الزم خدمة مولاك؛ تأتيك الدنيا راغمة، والجَنَّة عاشقة.

- ***قال الربيع بن أبي راشد:***

"لو فارق ذكر الموت قلبي؛ لخشيت أن يفسد، ولولا أن أخالف مَن كان قبلي؛ لسكنت الجبَّانة حتى أموت، ***وقال أيضاً:*** "إن ذكر الموت إذا فارق قلبي ساعة، فسد علي قلبي" (وكذا قال الربيع بن خثيم)

- ***جاء في كتاب "الزهد الكبير" للبيهقي (ص ٢٤١) عن داود الطائي أنه قال لسفيان:***

"إن تشرب الماء البارد والمروق، وتأكل اللذيذ المطيب، وتمشي في الظل الظليل، متى تحب الموت والقدوم على الله ﷻ؟ فبكى سفيان".

- ***قال الحسن*** ﷺ:

"حقيقٌ على مَن كان الموت موعده، والقبر مورده، والحساب مشهده، أن يطول بكاؤه وحزنه".

- ***وكذا كان يزيد الرقاشي*** ﷺ ***يقول:***

"ويحك يا يزيد: مَن ذا الذي يُصلِّي عنك بعد الموت، ومَن ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يَتَرضَّي عنك ربك بعد الموت؟ ***ثم يقول:*** "أيها الناس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ مَن الموت طالبه والقبر بيته والتراب فراشه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله؟ ثم يبكى حتى يسقط مغشياً عليه" اهـ (التذكرة للقرطبي: ص ٩)

- والله لو علمت البهائم ما نعلمه نحن عن الموت، ما أكلنا منها سميناً، ولكننا في غفلة، فالناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

- ***وكان الربيع بن خُثيم*** ﷺ: قد حفر في داره قبراً، فكان إذا وجد في قلبه قسوة؛ دخل في القبر؛ فاضجع ومكث ما شاء الله، **ثم يقول:** **(رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)** يُردِّدها، ***ثم يرد على نفسه ويقول:*** يا ربيع قد رجعت فاعمل"

- ***جاء في كتاب "الزهد الكبير" للبيهقي (ص ٢٤٦) عن قبيصة بن عتبة قال:***

"ما جلست مع سفيان (يعني الثوري) مجلساً إلا ذكر فيه الموت، وما رأيت أحداً أكثر ذكراً للموت منه".

- ***وجاء في كتاب "قصر الأمل" لابن أبي الدنيا (ص ٥٨) عن شميط بن عجلان أنه قال:***

"طالت آمالكم، فجدَّدتم منازلكم من الدنيا، وطيَّبتم منها معايشكم، وتلذذتم فيها بطيب الطعام، ولين اللباس، كأنكم للدنيا خُلِقْتم، أولا تعلمون أن الموت أمامكم؟ أولا تعلمون أن ملك الموت موكل بآجالكم، لا يذهب عنه من المدة شيء؟ ثم يقول: لا تكونوا – رحمكم الله – أقلَّ شيء بالموت اكتراثاً، وأعظم شيء عن الموت غفلة، فما ينتظر الحيُّ إلا الموت، وما ينتظر المسافر ألا الظَّعن"

فالموت حقيقه لا خيال، وواقع لا محال، وأعقل الناس أكثر للموت ذكراً، فإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، فاستعد للموت فهو أقرب إليك من شراك نعلك، والجَنَّة والنار مثل ذلك. **وهذا الصنف الذي تحدثنا عنه هو من أعقل الناس**

- **فأعقل الناس أكثرهم ذكراً للموت**

روى ابن أبي الدنيا في كتاب "الموت"، والطبراني في "الصغير" وابن ماجه بإسناد حسن من حديث ابن عمر ﷺ قال: **"أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة، فقام رجلٌ من الأنصار، فقال: يا نبي الله، مَن أكيس الناس وأحزم الناس، قال: أكثرهم ذكراً للموت وأكثرهم استعداداً للموت أولئك الأكياس؛ ذهبوا بشرف الدنيا، وكرامة الآخرة"**

(قال العراقي في "تخريج الإحياء": إسناده جيد)، (انظر الصحيحة: ١٣٨٤)

ورواه البيهقي ولفظه: **"أن رجلاً قال للنبي الله ﷺ: أي المؤمنين أفضل؟ قال: أحسنهم خلقاً، قال: فأي المؤمنين أكيس، قال: أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم لما بعده استعداداً أولئك الأكياس"**

- **ولقد وصفهم النبي ﷺ بأنهم أعقل الناس وأكيس الناس؛ لأنهم كانوا متوجهين دائماً إلى الدار الآخرة الباقية، معرضين عن الدار الفانية.**

فقد أخرج الإمام أحمد والحاكم والبزار من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"مَن أحبَّ دنياه أضرَّ بآخرته، ومَن أحبّ آخرته أضرَّ بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى"

فوالله لو كانت الدنيا ذهب يفنى، والآخرة خزف يبقى؛ لآثر الإنسان منا الخزف الذي يبقى على الذهب الذي يفنى، فكيف إذا كانت الآخرة هي الذهب الذي يبقى، والدنيا هي الخزف الذي يفنى.

إن لله عباداً فُطنَا ... طلَّقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا فيها فلمَّا علموا ... أنها ليست لحيٍّ وطنا

جعلوها لُجَّة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا

فهذا الصنف جعل همهم هماً واحداً وهو دخول الجَنَّة ورؤية وجه الله الكريم.

فقد أخرج ابن ماجه وابن حبان وأبو نعيم بسند حسن عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: **"مَن جعل الهموم هماً واحداً هم الميعاد؛ كفاه الله سائر همومه، ومَن تشعَّبت به الهموم في أحوال الدنيا، لم يبال الله في أي أوديتها هلك".**

وكما وصف النبي ﷺ هذا الصنف بأنه من أعقل الناس، وصفهم كذلك أبو عبيدة ﷺ

وجاء في "الرياض النضرة" عن سعيد بن المسيب ﷺ قال:

"لما طُعِنَ أبو عبيدة بالأردن دعا مَن حضره من المسلمين، وقال: إني موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير: أقيموا الصلاة وصوموا شهر رمضان، وتصدَّقوا، وحجُّوا واعتمروا، وتواصوا، وانصحوا لأمرائكم، ولا تغشوهم، ولا تلهكم الدنيا، فإن امرأً لو عُمِّر ألف حولٍ؛ ما كان له بد من أن يصير إلى مصرعي هذا الذي ترون، إن الله تعالى كتب الموت على بني آدم فهم ميتون؛ فأكيسهم أطوعهم لربه، وأعملهم ليوم معاده... والسلام عليكم ورحمة الله، يا معاذ بن جبل صَلِّ بالناس.

وهذا الصنف أيضاً أكثر الناس حياء من الله.

أخرج الإمام أحمد والترمذي من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"استحيوا من الله حق الحياء: قال: قلنا: يا نبي الله، إنا لنستحي والحمد الله، قال: ليس ذلك ولكن مَن استحيا من الله حق الحياء؛ فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلا، ومَن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمَن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء".

(صحيح الجامع: ٩٣٥)

كيف يكون ذكر الموت

ففي الحديث الذي أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم وقد مر بنا وفيه:

"**أكثروا من ذكر هادم اللذات**" يعني: الموت.

فهل معنى أن نكثر من ذكر الموت أن نمشي ونقول: موت... موت... موت؟ والجواب: لا.

إنما المقصود بذكر الموت والإكثار من ذكره؛ ألا نغفل عنه طرفة عين، ونجعله نصب أعيننا.

وكان أويس القرني ﷺ يخاطب أهل الكوفة قائلاً:

يا أهل الكوفة توسَّدوا الموت إذا نمتم، واجعلوا نصب أعينكم إذا قمتم.

فلتجعل أخي الحبيب ذكر الموت يسري في جسدك سريان الدم في العروق

وذكر الموت: إما أن يكون بالجنان (القلب)، أو باللسان، أو بالجوارح والأركان، أو بالنظر إلى المحتضر، أو زيارة الأموات.

أولاً: ذكر الموت بالقلب:

واذا خلى القلب من ذكر الموت مات، خرب، عطب، هلك، وكما أنه لا حياة للقلب إلا بذكر الله؛ فكذلك لا حياة للقلب إلا بذكر الموت، ***ولهذا قال الربيع بن خثيم*** ﷺ: "لو ذكر الموت غاب عن قلبي ساعة لفسد عليّ قلبي"

وإذا غاب ذكر الموت عن القلب؛ فيتمنى القلب ويشتهي ويركن إلى الدنيا، ولكن إذا ذكر الموت أناب إلى الله وتاب وقنع بما رزقه الله، فلا يحزن على مفقود، ولا يفرح بموجود، ولا يحسد أحداً على ما أعطاه ربنا المعبود في هذا الوجود.

فإذا دخل الموت على القلب رضي بما قدَّره الله، فمَن كان كذلك كان مستعداً حقاً للموت؛ متأهباً له بخلاف مَن أخبرنا الله عن حاله، **حيث قال تعالى:** {حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ{٩٩} لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{١٠٠} فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ{١٠١} فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{١٠٢} وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ{١٠٣} تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ{١٠٤} أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ}... **إلى قوله تعالى:** { قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ{١١٢} قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ{١١٣} قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{١١٤} أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: ٩٩-١١٥]

- برزخ: حاجز بينهم وبين الرجعة.
- تلفح وجوههم: تحرقها.
- كالحون: عابسون.
- عبثاً: أي عابثين بلا فائدة.

فالموت هائل، وخطره عظيم، والناس في غفلة عنه؛ لقلة فكرهم فيه وذكرهم له.

"ومَن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا، فلا ينجع ذكر الموت في قلبه. فالطريق فيه أن يُفرِّغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر، فإنه لا يتفكَّر إلا فيه، فإذا باشر ذكر الموت قلبه، فيوشك أن يؤثر فيه، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه.

وانظر لهذا العبد الصالح صلة بن أشيم:

"عندما أدخلوه على زوجته، فقبل أن يدخل بها دخل الحمَّام فبكى، ولما دخل على زوجته بكى، ثم صف رجليه ثم صلَّى حتى طلع الفجر، فقالوا له: أمرك عجيب تدخل على زوجتك فَتُخْي الليل، فقال: يا قوم: أدخلتموني على بيت ذكَّرني بالنار (يقصد الحمَّام، وكان فيه ماء حار وبخار)، وأدخلتموني على بيت ذكرني بالجَنَّة، هذا البيت المزين المزخرف، فكنت في هذه الليلة بين الرغبة والرهبة، فقلت: أقيم الليل".

وهكذا كان حال الرعيل الأول، كان أحدهم إذا شاهد دخان تذكَّر يوم الدخان، وإذا تزلزلت الأرض تذكر يوم الزلزلة، وإذا رأى النار تذكَّر نار الآخرة... وهكذا

ثانياً: ذكر الموت باللسان:

الإكثار من ذكر الموت باللسان أمر مطلوب؛ حيث يذكر بعضنا بعضاً بالموت؛ حتى يزهده في الدنيا الفانية، ويرغبه في الحياة الباقية، وهذا ما كان يفعله الرسول ﷺ ويفعله كذلك السلف الصالح

فقد أخرج الترمذي من حديث أبي بن كعب ﷺ قال:

"كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: يا أيها الناس، اذكروا الله جاءت الراجفة – النفخة الأولى– تتبعها الرادفة – النفخه الثانية – جاء الموت بما فيه..جاء الموت بما فيه"

(صحيح الجامع: ٧٨٦٣)

فكان النبي ﷺ يذكر من حوله بالموت؛ لأن نسيان الموت ضلال كبير وبلاء عظيم، ما نسيه أحد إلا طغى، وما غفل عنه إنسان إلا غوى

وهكذا كان حال السلف والرعيل الأول، كان أحدهم يعظ أخاه ويُذكِّره بالموت

فعن ابن مسعود ﷺ قال: **"ما منكم أحدٌ أصبح إلا وهو ضيف، ومالُه عارية. والضيف مرتحلٌ لينطلق، والعارية مؤدَّاة"**(حلية الأولياء:١/١٣٤)،(صفة الصفوة:١/٤١٩) (والزهد والرقائق لعبد الله بن المبارك)

ما المال والأهلون إلا ودائع ولابد من يوم أن تُردَّ الودائع

- ***وكان الربيع بن خُثَيْم ﷺ وهو من أئمة التابعين يقول:***

"أكثروا من ذكر ما لم تذوقوا قبله مثله – **يعني الموت** – ***فإن الغائب إذا طالت غيبته أحبه أهله، وأكثروا من ذكره، وانتظروا قدومه، وأوشك أن يفاجئهم بوصوله"*** (حلية الأولياء)

ودخل يزيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز ﷺ فقال له عمر رضي الله عنه:

عظني، فقال يزيد الرقاشي: لست أول خليفة تموت يا أمير المؤمنين، قال: زدني، قال: لم يبق أحد من آبائك من لدن آدم إلى أن بلغت النوبة إليك إلا وقد ذاق الموت، قال: زدني، قال: ليس بين الجَنَّة والنار منزل، **والله تعالى يقول:** {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{١٣} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}[الانفطار:١٣-١٤]، وأنت أبصر ببرِّك وفجورك، فبكى عمر حتى سقط عن سريره.

وها هو صلة بن أشيم:

"يمر على شباب يلعبون، فقال: يا أخوتاه، اجتمعوا إليّ، فقال لهم: ما تقولون في قوم أرادوا سفراً، فحادوا عنه نهاراً، وناموا عنه ليلاً، ماذا تقولون؟ أصابوا أم أخطئوا؟ ثم مرَّ عليهم في اليوم التالي؛ فوجدهم يلعبون، فقال لهم: مثل ما قال، ثم مرَّ عليهم في اليوم الذي بعده؛ فوجدهم يلعبون، فقال لهم مثل ما قال: فقال شاب منهم: والله إن صلة يعنينا بهذا الخطاب؛ فرجعوا عن اللعب إلى طاعة الله".

فلأي شيء خلقنا؟ هل خلقنا للعب؟ يأتيك الجواب: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ }[الذاريات:٥٦]

وقد روي في الحديث: **"وما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجَنَّة نام طالبها[١]"**

وهكذا أخي الحبيب كان حال السلف الصالح؛ يُذكِّر أحدهم بالموت حتى لا ينساه، ويدخل في ذكر الموت باللسان كذلك.

- إذا طلب أحد الزوجين شيئاً محرَّماً؛ فيذكره الآخر بأن الموت وراءنا.

- وكذلك إذا ظُلِم إنسان وهو عاجز أن ينتصر لنفسه؛ فإنه يذكر الظالم بالموت، ويقول له: اعلم أن الموت يعمُّنا، والقبر يضمُّنا، وأرض المحشر موقفنا، ويوم القيامة موعدنا، وسيحكم بيني وبينكم أحكم الحاكمين.

[١] والحديث أخرجه الترمذي وأبو نعيم في "الحلية"، والبغوي في "شرح السنة"، وغيرهم بسند ضعيف، قال الألباني ﷺ: "والحديث له شاهدان هو بهما حسن" (انظر الصحيحة: ٩٥٣).

ثالثاً: استحضار الموت وذكره عند الصلاة:

فعلى الإنسان أن يذكر الموت في جميع أحواله، ولا يغفل عنه في أي لحظة

ومن المعلوم لدينا أن أعظم الفرائض علينا وأكثرها مداومة ومباشرة هي الصلوات الخمس، وقد شرع لنا النبي ﷺ فيها أن نذكر الموت، وذلك حتى تحسُن صلاتنا.

فقد أخرج الديلمي بسند حسن عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال:

"اذكر الموت في صلاتك، فإن الرجل إذا ذكر الموت في صلاته؛ فحريٌ أن يحسن صلاته، وصلِّ صلاة رجل لا يظن أنه يُصلِّي صلاة غيرها، وإياك وكل أمرٍ يعتذر منه".

بل شرع لنا النبي ﷺ أن نستعيذ من عذاب القبر وعذاب جهنم عقب التشهد؛ حتى لا تنسى الموت والقبر وجهنم.

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:

"إذا تشهَّد أحدكم في الصلاة؛ فليتعوَّذ بالله من أربع: عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال، ومن عذاب جهنم".

رابعاً: ذكر الموت عند ركوب الدابة

فالإنسان إذا ركب الدابة شرع له أن يقول:

" سبحان الذي سخَّر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون "

فيتذكر الإنسان أن هناك سفر آخر سيقدم عليه، وهو رحلة إلى الدار الآخرة، وكان عليٌّ بن أبي طالب يصف هذا السفر، فيقول مخاطباً الدنيا: يا دنيا إليّ تعرَّضتِ أم لي تشوَّقت، هيهات... هيهات غريّ غيري، قد بِنْتُكِ ثلاثة لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، آه من قلة الزاد، وبُعْد السفر، ووحشة الطريق".

خامساً: تذكُّر الموت عند النوم:

فقد أخرج البخاري ومسلم أن النبي ﷺ كان يقول إذا أوى إلى الفراش:

"باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، فإن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين"

وفي رواية عند مسلم:

"اللهم إنك خلقت نفسي وأنت توفَّاها، لك مماتها ومحياها، إن أحييتها فاحفظها، وإن أمتَّها فاغفر لها، اللهم إني أسألك العافية"

وأخرج أبو داود والترمذي أن الحبيب النبي ﷺ:

"كان إذا أراد أن يرقد؛ وضع يده اليمنى تحت خدِّه، ثم يقول: اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك، ثلاث مرات"

يتذكر الموت والبعث دائماً قبل النوم حتى يقوم عالي الهمة بالنسبة للعبادة.

سادساً: تذكُّر الموت عند الاستيقاظ:

فقد أخرج البخاري من حديث حذيفة رضي الله عنه قال:

"كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل؛ وضع يده تحت خدَّه، ثم يقول: اللهم باسمك أموت وأحيا، وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور"

وكان أويس القرني رضي الله عنه يخاطب أهل الكوفة قائلاً:

"يا أهل الكوفة توسَّدوا الموت إذا نمتم، واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم"

سابعاً: ذكر الموت عن طريق مشاهدة المحتضرين، أو الصلاة عليهم، أو دفنهم، أو رؤية الأموات عموماً:

قال تعالى: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ }[فاطر:٣٧]

ففي قوله تعالى: {وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ} ***قال أهل التفسير:*** المقصود به الرسول ﷺ، ***وقال البعض:*** المقصود بالنذير: الشيب، ***وقال آخرون:*** إن المقصود بالنذير: هو تدافن الأقارب والأصحاب.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه ***إذا رأى أحداً يحمل جنازة يقول لها:***

"امضِ إلى ربك؛ فإنا على إثرك مَاضُون"

وكان ثابت يقول:

"كنا نشهد الجنائز، فلا نرى إلا متلفعاً باكياً". وذلك لأنهم كانوا يتذكَّرون جنازة أنفسهم، فلا يبكون على الميت، ولكن على أنفسهم".

قال أحدهم:

وإذا وليت قوماً ليلة ... فاعلم بأنك بعدها مسئول

وإذا حملت إلى القبور جنازة ... فاعلم بأنك بعدها محمول

وكان مكحول الدمشقي يقول إذا رأى جنازة:

"اغدوا فإنا رائحون، موعظة بليغة قليلة، وغفلة شنيعة، يذهب الأول، والآخر لا يعتبر".

وقال مالك بن دينار:

"كنا مع الحسن في جنازة، فسمع رجل يقول لآخر: من هذا الميت؟ فقال الحسن: هذا أنا وأنت – رحمك الله – إنهم محبسون على آخرنا؛ حتى يلحق آخرُنا بأولهم".

وكان الحسن رحمه الله ***يقول:*** "عجباً لقوم أُمروا بالزاد ونودي فيهم بالرحيل (الموت)، وحُبِس أولهم عن آخرهم وهم قعود يلعبون"

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: "إذا ذكرتَ الموتى؛ فعدّ نفسك كأحدهم"

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله ***يعظ الناس ويُذكِّرهم بالموت فيقول:***

"ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً رائحاً إلى الله عز وجل، تضعونه في صدع من الأرض؛ قد توسَّد التراب، وخلَّف الأحباب، وقطع الأسباب".

أخي الحبيب... تذكَّر أقاربك الذين حملتهم، وإخوانك وأصحابك الذين دفنتهم، فقد كانوا يحرصون حرصك، ويسعون سعيك، ويعملون في الدنيا عملك.

فقصفت المنونُ أعناقَهم، وقطعت عروقهم، وقصمت أصلابهم، وفجعت فيهم أحبابهم، فأفردوا في قبور موحشة، وصاروا جيفاً مدهشة فالأحداق سالت، والألوان حالت، والفصاحة زالت، والرءوس تغيرَّت ومالت، فهلا اتعظت بغيرك؟!

إن كان الجواب بالإثبات؛ فهنيئاً لك فأنت من السعداء، ***والأمر كما قال عبد الله بن مسعود*** ﷺ:

"السعيد مَن وعظ بغيره".

أما إن كان الجواب بالنفي، فابكِ على نفسك؛ لأنه من لم يكن له الموت واعظاً فلا تنفعه المواعظ،

كما قال الحسن بن عبد العزيز الجروبي:

"مَن لم يردعه القرآن والموت، فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع"

أيها الأحبة... أولم تروا أن الماضين منكم لا يرجعون، وأن الخلف الباقين لا يبقون؟

أولستم ترون أهل الدنيا يصبحون ويمسون على أحوال شتَّى، فميت يُبْكى، وآخر يُعزَّى، وصريع مبتلى، وعائد يعود، وآخر بنفسه يجود، وطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وعلى أثر الماضين يمضي الباقون، ألا فاذكروا هاذم اللذات، ومُنغِّص الشهوات ، وقاطع الأمنيات.

ثامناً: ذِكْر الموت عن طريق زيارة القبور:

فقد أخرج ابن ماجه عن أبي هريرة ﷺ ***عن النبي*** ﷺ ***قال:***

"زوروا القبور، فإنها تذكركم الآخرة" (صحيح الجامع: ٣٥٧٧)

وأخرج الحاكم عن أنس ﷺ ***عن النبي*** ﷺ: **"كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها؛ فإنها تُرق القلب، وتدمع العين، وتُذكِّر الآخرة"** (صحيح الجامع: ٤٥٨٤)

وفي "مسند الإمام" أحمد عن البراء بن عازب ﷺ ***قال:***

"بينما نحن مع رسول الله ﷺ**، إذ بصر بجماعة، فقال: علام اجتمع هؤلاء؟ قيل: على قبر يحفرونه، ففزع رسول الله** ﷺ**، فبدر بين يدي أصحابه مسرعاً؛ حتى انتهى إلى القبر فجثا على ركبتيه فاستقبلته بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بلَّ الثرى من دموعه، ثم أقبل علينا فقال: أي إخواني، لمثل هذا اليوم فأعدِّوا".**

عن عطاء السلمي: أنه كان إذا جنَّ عليه الليل خرج، فوقف على القبور، ثم يقول: يا أهل القبور مُتُّم فواموتاه، ويبكي ثم يقول: يا أهل القبور عاينتم ما عملتم، فواعملاه، ثم يبكي، فلا يزال كذلك حتى يصبح"

عن محمد بن صالح التمار قال: "كان صفوان بن سليم يأتي البقيع في الأيام، فمرَّ بي، فاتبعته ذات يوم وقلت: والله لأنظرنَّ ما يصنع، قال: فقنع رأسه، وجلس إلى قبر منها، فلم يزل يبكي حتى رحمته، قال: فظننت أنه قبر بعض أهله، قال: فمر بي مرة أخرى، فاتبعته، فقعد إلى جنب قبر غيره، فصنع مثل ذلك، فذكرت ذلك لمحمد بن المنكدر، وقلت: إني ظننته أنه قبر بعض أهله، قال محمد: كلهم أهله وإخوانه، وإنما هو رجل يحرك قلبه بذكر الأموات كلما عرضت له قسوة".

فيا مَن نسبه معرق في الموتى، وقد وعظوه وإن لم يسمع صوتاً، أدرك أمرك فما تأمن فوتاً.

جاء رجل إلى أم الدرداء يستنصحها فقال:

"إني لأجد في قلبي داء لا أجد له دواء، أجد قسوة شديدة، وأملاً بعيداً، فقالت له: اطلع في القبور، واشهد الموت"

وقد بيَّن القرطبي ﷺ كيف يتَّعظ الزائر بالموت، فقال:

"اعتبر بمَن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر، فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه، فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه ودرج من أقرانه، الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال.

كيف انقطعت آمالهم ولم تغنِ عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزائهم، وترمَّل بعدهم نساؤهم، وشمل ذلّ اليتم أولادهم، واقتسم غيرهم طريقهم وبلادهم.

وعند هذا التذكر والاعتبار؛ يزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه.

فيا غافلاً عن نفسه... أمرك عجيب، يا قتيل الهوى، داؤك غريب، يا طويل الأمل! سَتُدْعَى فتجيب، وهذا عن قليل، وكل آت قريب، هلا تذكرت لحدك؟! كيف تبيت وحدك، ويباشر التراب خدَّك؟!، وتقتسم الديدان جلدك، ويضحك المحب بعدك، ناسياً عنه بعدك؟! والأهل مذ وجدوا المال ما وجدوا فقدك، إلى متى، وحتى متى تترك رشدك؟! أما تحسن قصدك؟! الأمر جد مجد، فلازم جدك.

فـــوائـــد ذكـــر المـــوت

ممَّا لاشك فيه أن الإكثار من ذكر الموت يردع عن المعاصي، ويُلين القلب القاسي

يقول أبو علي الدقاق رحمه الله:

"مَن أكثر من ذكر الموت؛ أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومَن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الكفاف، والتكاسل عن العبادة".

فمن فوائد ذكر الموت:-

١ - الإقلاع عن الذنوب والإنابة إلى علام الغيوب:

أيها المذنب... أيها العاصي... تفكَّر في الموت وسكرته، وصعوبة كأسه ومرارته. فيا للموت من وعد ما أصدقه! ومن حاكم ما أعدله! كفى بالموت مقرحاً للقلوب، ومبكياً للعيون، ومفرقاً للجماعات، وهادم للذات، وقاطعاً للأمنيات، فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك وانتقالك من موضعك؟!

وإذا انتقلت من سعة إلى ضيق، وخانك الصاحب والرفيق، وهجرك الأخ والصديق، وأُخِذت من فراشك وغطائك على غرر، وغَطُّوك من بعد لين لحافك بتراب ومدر. فيا جامع المال، والمجتهد في البنيان، ليس لك والله من مالك إلا الأكفان، بل هي والله للخراب والذهاب، وجسمك للتراب والمآب، فأين الآمال؟ وأين ما جمعته من المال؟ هل أنقذك من الأهوال؟! كلا. بل تركته إلى مَن لا يحمدك، وقدمت بأوزارك على مَن سيحاسبك.

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا ... واعصي الهوى فالهوى ما زال فتانا
أما ترينا المنايا كيف تلقطنا ... لقطاً وتلحق أُخرانا بأولانا
في كل يوم لنا ميت نُشيعه ... نرى بمصرعه آثار موتانا
يا نفس مالي وللأموال أتركها ... خلفي وأخرج من دنياي عريانا
أبعد خمسين قد قضيتها لعباً ... قد آن أن تقصري قد آن قد آنا
ما بالنا نتعامى عن مصائرنا ... ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا
نزداد حرصاً وهذا الدهر يزجرنا ... كأن زاجرنا بالحرص أغرانا
أين الملوك وأبناء الملوك ومَن ... كانت تخرُّ له الأذقان إذعانا
صاحت بهم حادثات الدهر فانقلبوا ... مستبدلين من الأوطان أوطانا
خلوا مدائن كان العز مفرشها ... واستفرشوا حفراً غبراً وقيعانا
يا راكضاً في ميادين الهوى مرحاً ... ورافلاً في ثياب الغي نشوانا
مضى الزمان وولَّى العمر في لعب ... يكفيك ما قد مضى قد كان ما كانا

(المدهش: ص٣٨٩)

- ***ها هو الربيع بن خثيم*** ﷺ: "كان عمره لا يتجاوز الثلاثين، شاباً قوياً عابداً زاهداً، كان في بلده فُسَّاق وفُجَّار؛ يعملون على إفساد الناس، وليسوا في بلد الربيع فقط، بل هم في كل مكان، فعمدوا على إفساد الربيع' فجاءوا إلى بَغِيَّة فقالوا لها: هذه ألف دينار، فقالت: لِمَ، فقالوا: على قبلة واحدة من الربيع، فقالت: ولكم فوق ذلك أن يزني بي، ثم ذهبت وتعرَّضت للربيع في ساعة خلوة، وأبدت مفاتنها، ووقفت أمامه؛ فلما رآها صرخ فيها، وقال: يا أمة الله، كيف بكِ لو نزل بك ملك الموت؛ فقطع منكِ حبل الوتين، أم كيف بكِ يوم يسألك منكر ونكير؟! أم كيف بكِ يوم تقفين بين يدي الرب العظيم؟! أم كيف بكِ إن لم تتوبي فترمين في الجحيم؟! فلمَّا ذكَّرها بالموت، وهول الموقف، والوقوف بين يدي الله الجليل صرخت وولَّت هاربة تائبة عابدة عائدة إلى الله ﷻ، تقوم من ليلها ما تقوم، وتصوم من نهارها ما تصوم؛ فلُقِّبت بعد ذلك بعابدة الكوفة

دع عنك ما قد فات في زمن الصبا ... واذكر ذنوبك وابكها يا مذنبُ
لم ينساه الملكان حين نسيته ... بك أثبتاه وانت لاهي تلعبُ
والروح منك وديعة أودعتها ... ستردها بالرغم منك وتسلبُ
وغرور دنياك التي تسعى لها ... دار حقيقها متاع يذهبُ
الليل فاعلم والنهار كلاهما ... أنفسُنا فيهما تعدُّ وتحسبُ

قال القرطبي ﷺ ***في كتابه "التذكرة" (ص ١٢): قال العلماء:***

"تذكُّر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهون المصائب".

- ***وها هو شاب يدعى دينار:*** كان مسرفاً على نفسه، وكان له أمٌّ تعظه فلا يتَّعظ، فمرَّ في يوم من الأيام على مقبرة كثيرة العظام، قد خرجت العظام من المقبرة، فتذكَّر الموت، وتذكَّر مصيره، وتذكَّر نهايته، وتذكَّر أنه على الله قادم.

أخذ عظماً نخراً في يده؛ ففتَّته، ***ثم خاطب نفسه قائلاً:*** "ويحك يا نفس كأني بك غداً، قد سار عظمك رفتاً، وجسمك تراباً، ومازالت منكبة على اللذائذ، والمعاصي، والشهوات.

ثم ندم وعزم على التوبة والإنابة والرجوع إلى الله تعالى، فرفع رأسه إلى السماء، قائلاً: اللهم ألقيت إليك مقاليد أمري؛ فاقبلني واسترني يا أرحم الراحمين، ثم مضى إلى أمه متغيِّر اللون، منكسر القلب، فكان إذا جنَّ الليل أخذ في القيام والبكاء، وأخذ في النحيب، ***وهو يقول:***

يا دينار ألك قوة على النار ... يا دينار ألك قوة على النار
كيف تعرَّضت لغضب الجبار

وظلَّ على ذلك أيام يقوم ليله، ويناجي ربه، فرفقت به أمه يوم رأت جسمه قد هزل ، ***فقالت له:*** يا بنيّ ارفق بنفسك قليلاً. فقال لها: يا أماه دعيني أتعب قليلاً؛ لعلي أستريح طويلاً، يا أماه... أنى لي موقف بين يدي الجليل، ولا أدري أإلى ظل ظليل، أم إلى شر مقيل؟ يا أماه.. إني أخاف عناء لا راحة بعده. قالت: بنياه، أكثرت من تعب نفسك، قال: يا أماه بل راحتها أريد، يا أماه... ليتك كنت بي عقيماً، إن لابنك حبس في القبر طويلاً، وإن له بعد ذلك وقوفاً بين يدي الرحمن طويلاً، فكان يقوم ليله **ويقرأ قول الله تعالى:** {فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ{٩٢} عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الحجر:٩٢-٩٣] فيبكي بكاءً شديداً، ثم يخر مغشياً عليه"

فيا مَن ذلَّت قدمه، وكلنا ذاك الرجل؛ تذكر الموت، وتب إلى الله.

فيا مَن سقطَّ في المعصية وكلنا ذاك الرجل؛ تذكَّر الموت، وتب إلى الله.

٢- ومن فوائد ذكر الموت: أنه يدعو إلى قصر الأمل:

فقد أخرج البخاري من حديث ابن عمر ﷺ قال:

"أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وكان ابن عمر ﷺ يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك"

زاد أحمد والترمذي: **"وعدَّ نفسك من أهل القبور"**

وعند البيهقي في "الزهد الكبير" عن ابن عمر ﷺ قال:

"أخذ رسول الله ﷺ بجسدي، فقال: كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل، واعدد نفسك في الموتى، وأهل القبور"

قال مجاهد: **ثم قال لي عبد الله بن عمر: يا مجاهد، إذا أصبحت فلا تحدِّث نفسك بالمساء، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، يا عبد الله لا تدري ما اسمك غداً".**

وكان علي بن أبي طالب ﷺ يقول كما عند البخاري معلقاً:

"إن أخوف ما أخاف عليكم: اتباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتباع الهوى، فيصد عن الحق، وأما طول الأمل؛ فينسي الآخرة"

تزوَّد من التقوى فإنك لا تدري ... إذا جنَّ ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى يمسي ويصبح لاهياً ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من عروسٍ زيَّنوها لزوجها ... وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر[1]
وكم من صغارٍ يرتجي طول عمرهم ... وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيحٍ مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

وعظ أعرابي ابنه فقال: أي بنى إنه مَن خاف الموت بادر الفوت، ومَن لم يكبح نفسه عن الشهوات أسرعت به التبعات، والجَنَّة والنار أمامك. (الزهد الكبير للبيهقي: ص١٦٧)

أضْحَك سنَّك بُعْدَ الأمل ... ولم يُبْك عينك قُرْبُ الأجل
كأنك لم ترَ حيَّاً يساق ... ولم ترَ ميِّتا على مُغْتَسل

(الزهد الكبير للبيهقي: ص ١٦٧)

وجاء في كتاب "قصر الأمل" لأبن أبي الدنيا رحمه الله:

نُودي بصوت أيَّما صوت ... ما أقرب الحي من الميت
كأن أهل الغيّ في غيِّهم ... قد أخذوا أمنا من الموت
كم مصبحٍ يَعْمر بيتاً له ... لم يُمس إلا خارب البيت
هذا وكم حيٍّ بكى ميتاً ... فأصبح الحيُّ مع الميت

فعلى كل مَن غرَّته الدنيا وغرَّه طول الأمل أن يُحدِّث نفسه ويقول:

يا نفس قد أزف الرحيل وأظلك الخطب الجليل ... فتأهبي يا نفسي لا يلعب بك الأمل الطويل
فلتنزلين بمنزلٍ ينسى الخليل فيه الخليل ... وليركبن عليك فيه من الثرى ثقل ثقيل

وكما قيل:

واذكر الموت تجد راحة ... في ادِّكَارِ الموت تقصير الآمال

[1] ليلة القدر: العرس.

وأحذِّرُ نفسي وإياك أخي الكريم... أن تغتر بطول الأمل؛ فتسيئ العمل، فيقسو القلب

كما قال علام الغيوب: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ } [الحديد: ١٦]

وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ في خطبته:

"والله ما هي إلا الآخرة؛ ألا فاعملوا الخير ما دعيتم إليه، ولا تغرَّنكم الدنيا والمهلة فيها، فعن قليل تُنْقَلون إلى غيرها، توشكون. فالله الله! في أنفسكم، فبادروا بها قبل حلول الموت، فلا يطولُ بكم الأمد فتقسو قلوبكم". ثم نحب وهو على المنبر. **(قصر الأمل: ص ١١٢)**

٣- ومن فوائد ذكر الموت: اغتنام الأوقات، والمسارعة لفعل الطاعات:

قال القرطبي ﷺ في كتابه "التذكرة" (ص ١٢): قال العلماء – رحمهم الله–:

ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور، وخاصة إن كانت قاسية، **فعلى أصحابها أن يعالجوها بثلاثة أمور:–**

أحدها: الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم، بالوعظ والتذكير والتخويف والترغيب وأخبار الصالحين، فإن ذلك ممَّا يلين القلب.

الثاني: ذكر الموت فيكثر من ذكر هادم اللذات، ومفرِّق الجماعات، ومُيتِّم البنين والبنات.

الثالث: مشاهدة المحتضرين، فإن النظر إلى الميت، ومشاهدة سكراته ونزعاته، وتأمُّل صورته بعد مماته ممَّا يقطع على النفوس لذَّاتها، ويطرد عن القلوب مسرَّاتها، ويمسح الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب.

وذكر عن الحسن البصري ﷺ:

"أنه دخل على مريض يعوده، فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه، وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام يرحمكم الله، فقال: يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله لقد رأيت مصرعاً لا أزال أعمل له حتى ألقاه.اهـ **(من كلام القرطبي ﷺ)**.

إخواتاه... تذكَّروا الموت، واحملوا أنفسكم على الطاعات قبل أن تحملوا على الأعناق.

وجاء في كتاب "الزهد" للإمام أحمد (ص ٢٣٦) عن الحسن البصري ﷺ أنه قال:

"ما أكثر عبدٌ ذكر الموت إلا رُأي ذلك في عمله، ولا طال أملُ عبدٍ قط ألا أساء العمل.

وكان الحسن البصري ﷺ يقول:

"حقيق على مَن عرف أن الموت مورده، والقيامة موعده، والوقوف بين يدي الجبار مشهده، أن تطول في الدنيا حسرته، وفي العمل الصالح رغبته".

جاء في كتاب "الزهد" للإمام أحمد (ص ٢٣٦)، و"الزهد" للحسن البصري (ص ٢١):

عن الحسن البصري ﷺ قال: "كان رجل من المسلمين يبلغه موت أخ من إخوانه يقول: "إنا لله وإنا إليه راجعون"؛ كدت والله أن أكون أنا السواد المختطف، فيزيده الله بذالك جدًّا واجتهاداً،

فيلبث بذلك ما شاء الله، ثم يبلغه موت الأخ من إخوانه فيقول: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، كدت والله أن أكون أنا السواد المختطف، فيزيده الله بذلك جداً واجتهاداً.

فردَّد الحسن هذا الكلام غير مرة، فوالله ما زال كذلك حتى مات موتاً كيساً.

وعن عبد الواحد بن صفوان قال: "كنا مع الحسن في جنازة، فقال: "رَحِم الله امرأً عمل لمثل هذا اليوم، إنكم اليوم تقدرون على ما لا يقدر عليه إخوانكم هؤلاء من أهل القبور؛ فاغتنموا الصحة والفراغ، قبل يوم الفزعة والحساب".

وقال أبو عبد الله بن أيوب:

اغتنِم في الفراغ فضلَ ركوعٍ ... فعسى أن يكون موتك بغْتَة

كم صحيحٍ رأيت من غير سَقْم ... ذهبتْ نفسُه الصحيحة فلْتَة

(الزهد الكبير للبيهقي: ص٢٣٥)

أخرج ابن أبي الدنيا بإسناده عن عنبسة الخواص قال:

"إن رجلاً من الصدر الأول دخل المقابر، فمر بجمجمة بادية من بعض القبور؛ فحزن حزناً شديداً، ثم واراها، ثم التفت فلم يرَ إلا القبور، فحزن حزناً شديداً، فحدَّث نفسه، فقال: لو كشف لي عن بعضهم فسألته عمَّا رأى، قال: فأُتِيَ في منامه، فقيل له: لا تغتر بتشييد القبور من فوقهم، فإن القوم قد بليت خدودهم في التراب، فمن بين مسرور ينتظر ثواب الله ﷻ، وبين مغموم آسفاً على عقابه، فإياك والغفلة عما رأيت، فاجتهد الرجل بعد ذلك اجتهاداً شديداً؛ حتى مات ﷺ.

(أهوال القبور: ص ١٨٠-١٨٥)

ذكر ابن أبي الدنيا كذلك في كتابه "أهوال القبور":

"إن امرأة بالمدينة كانت تزهو، فدخلت يوماً المقابر، فرأت جمجمة، فصرخت، ثم رجعت مُنيبة، فدخل عليها نساؤها، فقلن: ما هذا؟ فقالت: بكى قلبي لذكر الموت، لما رأيت جماجماً جوف القبور، ثم قالت: اخْرُجن عني، فلا تأتين منكم إلا امرأة ترغب في عبادة الله ﷻ، ثم أقبلت عل عبادة الله تعالى حتى ماتت – رحمها الله تعالى –.

أخي...

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعرى[1] بعد الموت ما الدارُ
الدار جنَّةُ خلدٍ إن عملت بما ... يرضى الإله وإن خالفت فالنارُ
هما محلان ما للناس غيرهما ... فانظر لنفسك أي الدار تختارُ؟

وكانت عَجردة العمية – رحمها الله –:

"إذا جاء الليل، لبست ثيابها وتقنَّعت ثم قامت إلى المحراب، فلا تزال تصلِّي إلى السحر، ثم تجلس فتدعو حتى يطلع الفجر، فقالت لها أمنة بنت يعلى بن سهيل – أو بعض أهل الدار –: لو نمت من الليل شيئاً ! فبكت وقالت: ذكر الموت لا يدعُني أنام" **(صفة الصفوة:٤/٣١)**

قال اللبيدي: "وجدتُ بعد موت أبي إسحاق الجبنياني ﷺ رقعة تحت حصيرة مكتوبة بخطه: رجل وقف له هاتف، فقال له: أحسن... أحسن عملك، فقد دنا أجلك، فقال لي ولده عبد الرحمن: إنه كان إذا قصَّر في العمل، أخرج الرقعة فنظر فيها، ورجع إلى جدِّه"

وكان بشر الحافي إذا ذُكِر الموت يقول:

"ينبغي لمَن يعلم أنه يموت أن يكون بمنزلة مَن جَمع زاده، فوضعه على رحله، لم يدع شيئاً ممَّا يحتاج إليه إلا وضعه عليه.

إن لله عبــاداً فطناً ... طلَّقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحيٍّ وطنا
جعلوها لُجَّة واتخذوا ... صالح الإعمال فيها سُفُنا

أخي... أزفُّ الرحيل وما حصل الزاد، فيا لرحيلك ما أعجله، يا لسفرك ما أطوله، يا لطريقك ما أهوله. تنبَّه أيها الشاب لاغتنام العمل، تيقَّظ أيها الكهل قبل خيبة الأمل، بادر أيها الشيخ فكأن قد قيل ورحل، يا مَن ستفوت أنفاسه استدركها، يا مَن ستفوت أيامه أدركها، أعز الأنفس عليك نفسك فلا تهلكها.

(رءوس القوارير – لابن الجوزي: ص ١٥٣).

---

[1] يا ليت شعري: ليتني أعرف.

٤- من فوائد ذكر الموت: الاتعاظ وأخذ العبرة:

فقد أخرج الطبراني عن عثمان ﷺ أن النبي ﷺ قال:

"كفى بالموت واعظاً، وكفى باليقين غنى"

وقيل لبعض الزهاد: ما أبلغ العظات؟ قال: النظر إلى الأموات"

وكما قيل: "السعيد مَن وعظ بغيره"

وقد مرَّ بنا أثر الحسن البصري ﷺ:

عندما دخل على مريض يعوده، فوجده في سكرات الموت، فنظر إلى كربه، وشدة ما نزل به، فرجع إلى أهله بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: الطعام يرحمكم الله، فقال: يا أهلاه عليكم بطعامكم وشرابكم، فوالله لقد رأيت مصرعاً لا أزال أعمل له حتى ألقاه. اهـ

– فعلى ابن آدم أن يعتبر بمَن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر، فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه؛ فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه، ودرج من أقرانه، الذين بلغوا الآمال وجمعوا الأموال، كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزاؤهم، وترمَّلت بعدهم نساؤهم، وشمل ذُلُّ اليتم أولادهم، واقتسم غيرهم طريقهم وبلادهم".

٥- ومن فوائد ذكر الموت: عدم الركون إلى الدنيا، والالتفات إلى الباقية:

فقد قال القرطبي ﷺ كما في كتابه "التذكرة" (ص٨):

"اعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية، والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية.

قال الحسن ﷺ:

فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي لبٍّ فرحاً، وما ألزم عبدٌ قلبه ذكر الموت إلا صغرت في عينه الدنيا، وهان عليه كل ما فيها"

وقال إبراهيم التيمي ﷺ:

شيئان قطعا عليّ لذة الدنيا: ذكر الموت، وذكر الوقوف بين يدي الله تعالى.

ونظر مطيع يوماً إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى وقال:

"والله لولا الموت لكنت بك مسروراً، ولولا ما نسير إليه من ضيق القبور، لقرَّت بالدنيا أعيننا".

أيا عبد كم يراك الله عاصياً	**حريصاً على الدنيا وللموت ناسياً**
أنسيت لقاء الله واللحد والثرى	**ويوماً عبوثاً تشيب فيه النواصى**
لو أن المرء لم يلبس ثياباً من التقى	**تجرد عرياناً ولو كان كاسياً**
ولو أن الدنيا تدوم لأهلها	**لكان رسول الله حيّاً وباقياً**
ولكنها تفنى ويفنى نعيمها	**وتبقى الذنوب والمعاصي كما هى**

٦- من فوائد ذكر الموت: القناعة:

فيحصل قناعة في قلبه فلا يحسد أحد في الوجود على ما اعطاه ربنا المعبود ثم هو لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود

مر بنا كلام أبو علي الدقاق ﷺ حيث قال:

"مَن أكثر من ذكر الموت؛ أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومَن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الكفاف، والتكاسل عن العبادة".

قال القرطبي ﷺ كما في "التذكرة" (٢٧/١) قال علماؤنا – رحمة الله عليهم-: قوله ﷺ:

"أكثروا ذكر هاذم اللذات" كلام مختصر وجيز، قد جمع التذكرة وأبلغ في الوعظ، فإن مَن ذكر الموت حقيقةَ ذِكْرِهِ نغص عليه لذته الحاضرة، ومنعه تمنيها في المستقبل وزهده فيما كان منها يؤمل.اهـ.

كما مر بنا كلام مطيع: عندما نظر يوماً إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى وقال:

"والله لولا الموت لكنت بك مسروراً، ولولا ما نسير إليه من ضيق القبور، لقرَّت بالدنيا أعيننا".

وقال أبو الدرداء ﷺ:

"مَن أكثر ذكر الموت قلّ فرحه، وقلّ حسده" **(الزهد لابن المبارك ص ٣٧)**

قال عمر بن عبد العزيز ﷺ:

"مَن قرب الموت من قلبه استكثر ما في يديه" **(شرح الصدور ص ٢١)**

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأوزاعي فقال له:

أما بعد... مَن أكثر من ذِكْر الموت؛ رضي من الدنيا باليسير"

وكان الأوزاعي ﷺ يقول:

"مَن أكثر ذِكْر الموت كفاه اليسير، ومَن عَرِف أن منطقه من عمله قلّ كلامه"

(الزهد الكبير للبيهقي: ص ٢٥٣).

وصدق القائل حيث قال:

النفس تجزع أن تكون فقيرة ... والفقر خير من غنى يطغيها

وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت ... فجميع ما في الأرض لا يكفيها

هي القناعة فالزمها تكن ملكاً ... لو لم تكن لك إلا راحة البال

وانظر لمَن ملك الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير الطيب والكفن

ولابد أحبتي في الله... أن نعلم أن الإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق وسعة، ونعمة ومحنة، فإن كان في حال ضيق ومحنة؛ فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه، فإن ذلك لا يدوم، والموت أصعب منه، أو في حال نعم وسعة؛ فذكر الموت يمنعه من الاغترار بهذه النعم والركون إليها؛ لأنه حتماً سيتركها.

وقد روى البزار بسنده عن أنس ﷺ قال:

"مرَّ سول الله ﷺ بمجلس وهم يضحكون، فقال: اكثروا من ذكر هادم اللذات، فإنه ما ذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه، ولا في سعة إلا ضيَّقه"

وأخرج البيهقي في "شعب الإيمان" وابن حبان في "صحيحه" والبزار في "مسنده" بإسناد حسن عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

"اكثروا ذكر هاذم اللذات، الموت، فإنه لم يَذْكُرْه أحدٌ في ضيق من العيش إلا وسعه عليه، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه" (صحيح الجامع: ١٢١١)

وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة:

"أكثر ذكر الموت، فإن كنت واسع العيش ضيَّقه عليك، وإن كنت ضيق العيش وسَّعه عليك".

هب أنك قد ملكت الأرض طرًّا ... ودان لك العباد فكان ماذا

أليس إذاً مصيرك جوف قبرٍ ... ويحث التراب هذا ثم هذا

فيا جامع المال، والمجتهد في البنيان... ليس لك من مالك إلا الأكفان، بل هي والله للخراب والذهاب، وجسمك للتراب والمآب، فأين الآمال؟ وأين ما جمعته من المال؟ وهل أنقذك من الأهوال؟ كلا. بل تركته إلى مَن لا يحمدك، وقدمت بأوزارك علي مَن سيحاسبك.

٧- من فوائد ذكر الموت: القلب يلين ويخشع، والنفس تطمئن والجوارح تسكن:

قال القرطبي ﷺ في "التذكرة":

تذكُّر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهون المصائب".

أخرج الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: "دخل رسول الله ﷺ مصلَّاه فرأى ناساً كأنهم يكتشرون(١) فقال: أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات شغلكم عما أرى".

– **يكتشرون:** يضحكون حتى تبدو نواجذهم.

وأخرج ابن حبان في "صحيحه" من حديث أبي ذر ﷺ أنه قال:"قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى عليه السلام؟ قال: كانت عبراً كلها. عجبتُ لمَن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبتُ لمَن أيقن بالنار ثم هو يضحك، عجبتُ لمَن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، عجبتُ لمَن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها، ثم اطمأن إليها، وعجبتُ لمَن أيقن بالحساب غداً، ثم لم يعمل"

وقد روي عن الحسن ﷺ: أنه كلما مرَّ على شابٍ وجده يضحك، فقال له الحسن: هل جزت الصراط، قال الشاب: لا، قال الحسن: هل جاءك كتاب من الله فيه براءة من النار، قال: لا. قال الحسن: فعلام الضحك، فما رأى هذا الشاب ضاحكاً قط".

– عجباً لذاكر الموت كيف يلهو؟ ولخائف الفوات وهو يسهو، ولمتيقن حلول البلى ثم يزهو، وإذا ذكرت له الآخرة مر يلغو.

استلب زمانك يا مسلوب، وغالب هواك يا مغلوب، وحاسب نفسك فالعمر محسوب، وامح قبيحك فالقبيح مكتوب، واعجباً لنائم وهو مطلوب، ولضاحك وعليه ذنوب.

عن مطرف الهذلي قال:

"كانت عجوز متعبدة في عبد القيس، فعوتبت في كثرة إتيانها القبور، فقالت: إن القلب القاسي إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى، وإني لآتي القبور وكأني أنظر إليهم قد خرجوا من بين أطباقها، وكأني أنظر إلى تلك الوجوه المتغفِّرة، وإلي تلك الأجساد البالية المتغيِّرة، وإلى تلك الأكفان الدنسة، فيا له من نظر".

قالت صفية ﷺ: "إن امرأة اشتكت إلى عائشة ﷺ قسوة قلبها، فقالت: اكثري ذكر الموت؛ يرق القلب، ففعلت ذلك؛ فرقَّ قلبها" ("التذكرة": ص ١٢)

وجاء رجل إلى أم الدرداء ﷺ يستنصحها فقال:

"إني لا أجد في قلبي داء لا أجد له دواء، أجد قسوةً شديدةً وأملاً بعيداً، فقالت له: اطلع في القبور، واشهد الموت".

– إن ذِكْر الموت يوقظ القلوب من نسيانها، ويزجر النفوس عن التمادي في شهواتها، ويؤخذ بالنواصي لطاعة ربها.

٨- من فوائد ذكر الموت: يُهوِّن مصائب الدنيا:

وقد مرَّ بنا قول القرطبي ﷺ حيث قال:

"تذكُّر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا، ويهون المصائب".

ومر بنا قول الحسن ﷺ:

فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لبٍّ فرحاً، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت؛ إلا صغرت في عينه الدنيا، وهان عليه كل ما فيها"

وقال كعب ﷺ: "مَن عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها" (الإحياء:٤/٤٧٩)

٩- من فوائد ذكر الموت: محاسبة النفس:

إن ذكر الموت يجعل الإنسان في محاسبة دائمة مع نفسه؛ لأنه يعلم أنه سيقف يوماً بين يدي الجليل – سبحانه – وسيحاسبه على النقير والقطمير، فإذا ما حاسب نفسه كان من العقلاء الأكياس.

والأمر كما قال النبي ﷺ فيما رواه الترمذي والإمام أحمد والحاكم:

"الكيِّس مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز مَن اتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله الأماني". (ضعيف)

وقوله – عليه الصلاة والسلام –: **"الكيِّس من دان نفسه"** أي: حاسب نفسه، وقيل: ذلَّ نفسه.

قال أبو عبيد: دان نفسه: أي: أذلَّها واستعبدها.

يقال: دنته آدينه: إذا ذللته؛ فيذل نفسه في عبادة الله ﷻ عملاً يعدّه لما بعد الموت ولقاء الله تعالى، وكذلك يحاسب نفسه على ما فرَّط في عمره، ويستعد لعاقبة أمره بصالح عمله، والتَّنصُّل من سالف زلله، وذكر الله تعالى وطاعته في جميع أحواله، فهذا هو الزاد ليوم الميعاد.والعاجز ضد الكيس.

والكيس: العاقل، والعاجز: المُقصِّر في الأمور، فهو مع تقصيره في طاعة ربه، واتباع شهوات نفسه؛ متمنٍّ على الله أن يغفر له، وهذا هو الاغترار، ***وقال الحسن البصري ﷺ:*** "إن قوماً ألهتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة، ويقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي وكَذِبَ، لو أحسن الظن لأحسن العمل، **وتلا قول الله تعالى:** **{وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ }**

[فصلت:٢٣]

وقال سعيد بن جبير: "الغرة بالله أن يتمادى الرجل بالمعصية، ويتمنَّى على الله المغفرة".

وها هو عمر بن الخطاب ﷺ يقول:

"حاسِبُوا أنفسكم قبل أن تحاسَبُوا، وزِنُوا أعمالكم قبل أن تُوزَنُوا، وتَأَهَّبُوا للعرض الأكبر، يوم لا تخفى منكم خافية".

وكان يتمثل كثيراً بهذه الأبيات:

لا شيء ممَّا ترى تبقى بشاشته	**يبقى الإلهُ ويودى المالُ والولدُ**
لم تغن عن هرمزٍ يوماً خزائنهُ	**والخلدُ قد حاولت عادٌ فما خلدوا**
ولا سليمان اذ تجرى الرياحُ له	**والإنسُ والجنُ فيما بينهما تردُ**
أين الملوكُ التي كانت لعزتها	**من كل أوبٍ إليه وافد يفدُ؟**
حوض هنالك موروذٌ بلا كذب	**لان من ورده يوماً كما وردوا**

يقول الحافظ ابن كثير ﷺ في تفسيره عند قوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [الحشر:١٨]

قال الحافظ: "أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم، وعرضكم على ربكم".

وقال ابن القيم ﷺ:

"فإذا كان العبد مسئولاً ومحاسباً على كل شيء؛ حتى على سمعه وبصره وقلبه، **كما قال تعالى:**

{إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [الإسراء:٣٦]

فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب

– فعلى الإنسان أن يقف مع نفسه وقفة صدق، ***ويقول لها:***

يا نفس... كيف أنتِ منِّي غداً، وقد رأيت ركابَ أهل الجَنَّة، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم

كيف بك وقد حيل بينك وبينهم، هل سينفع الندم – هل ستغني الحسرات –

أم هل سينفع طلب الرجوع عند الممات

يا نفس... انظري واعتبري بمَن سكن القبور بعد القصور، واعلمى أن الفرصة واحدة لا تتكرر

فإذا جاءت السكرة فلا رجعة ولا عودة

فأنتِ في دار المهلة؛ فجاهدي قبل النقلة، ***قبل أن تقولي:***

{ رَبِّ ارْجِعُونِ{٩٩} لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ...} [المؤمنون:٩٩-١٠٠]

فيقال لك: فات.

ويحك يا نفس... تنشغلين بعمارة دنياك مع كثرة خطاياك كأنك من المخلدين، أما تنظرين إلى أهل القبور، كيف جمعوا كثيراً فأصبح جمعهم بوراً، وكيف بنوا مشيداً فصار بنيانهم قبوراً.

وكيف أَّملوا بعيداً فصار أملهم زوراً.

ويحك يا نفس... أما لك بهم عبرة؟ أما لكِ إليهم نظرة؟!

أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة، وأنت من المخلدين؟

ويحك يا نفس... هيهات... هيهات، ساء ما تتوهمين

ما أنتِ إلا في هدم عمرك، منذ أن سقطتِ من بطن أمك.

ويحك يا نفس... تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك، وتقبلين على الدنيا وهي فارة معرضة عنك، فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله، وكم من مؤملٍ لغد لا يبلغه.

ويحك يا نفس... ما أعظم جهلك؟ أما تعرفين أن بين يديك الجَنَّة أو النار، وأنت سائرة إلى أحدهما.

فما لك تمرحين وتفرحين، وباللهو تنشغلين، وأنتِ مطلوبة لهذا الأمر الجسيم، عساك اليوم أو غداً بالموت تختطفين.

ويحك يا نفس... أراك ترين الموت بعيداً والله يراه قريباً، فما لك لا تستعدين للموت، وهو أقرب إليكِ من كل قريب، أما تتدبرين؟!.

الخاتمة:

أحبتي في الله... ما نقرأه اليوم في السطور؛ سيكون غداً عيان منظور، فلنتذكر الموت ونستعد له.

فإن الذي يعيش مترقباً النهاية يعيش مستعداً لها، فيقل عند الموت حسرته .

قال بعض الحكماء لبعض إخوانه:

"يا أخي... تذكَّر الموت في هذه الدار، واستعد له قبل أن تصير إلى دار تتمنَّى فيها الموت فلا تجده".

فلهذا أوصيكم بما أوصى به مطرف حيث قال ﷺ:

"أفسد الموت على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه" **(الزهد الكبير للبيهقي:ص٤٤)**

قال شقيق البلخي ﷺ: "استعد إذا جاءك الموت، أن لا تسأل الرجعة"

إن مَن لم يستعد للموت، فموته موت فجأة، وإن رقد على فراشة سنة"

وأختم بهذه الوصية الجميله لخليد القصري حيث قال:

كلنا قد أيقن بالموت، وما نرى له مستعداً ! وكلنا قد أيقن بالجَنَّة، وما نرى لها عاملاً !

وكلنا قد أيقن بالنار، وما نرى له خائفا!

فعلام تعرِّجون؟ وما عسيتم تنتظرون؟ الموت؟ فهو أول واردٍ عليكم من الله بخير أو بشر!

يا إخوتاه... سيروا إلى ربكم سيراً جميلاً" **(صفة الصفوة:٣/٢٣١)**

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة.

نسأل الله أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منَّا بقبول حسن، كما أسأله ﷻ أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا بشأن أي عمل بشري يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صواباً فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ مَن لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحاً ولوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه نصيب

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله تعالى أعلى وأعلم.....

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك